دور القرآن الكريم في تقعيد اللغة العربية الفصحى

الطالبة: مزيود سامية
بإشراف الدكتورة: عبو لطيفة
جامعة تلمسان

الملخص:

يعتبر القرآن الكريم أوّل كتاب مدوّن تشهده العربية، وتعدّ الجهود التي بذلها المسلمون الأوائل في مجال قراءته وكتابته بداية للدرس اللّغوي العربي، فهو كتاب العربية الأول الذي اتخذ الأدباء والخطباء والمتحدّثون بلاغته وفصاحته مثالا يحتذونه، فقد كان القرآن العامل الحاسم في ظهور العربية الفصحى والتمكين لها، ولا يزال العامل الأول في حياتها وديمومتها، فللقرآن الكريم دور كبير في تهذيب اللغة العربية وضبط قواعدها، وبفضله أضحت لغة عالمية تنطق بها الأمم.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، اللغة العربية الفصحى، القراءات القرآنية، القواعد النحوية، لغة قريش، اللهجات.

Résumé:

Le Coran est le premier livre écrit vécu en langue arabe, les efforts que les musulmans ont fait pour lire et écrire ce livre, ont développé la linguistique arabe donc c'est le point de départ, là où les prêcheurs (Preachers) , les interlocuteurs et les littéraires ont pris la clarté et la performance de langue arabe ainsi que ce livre sera le model et le plan de toute méthode d'écriture parfaite et grâce au Coran ainsi que la langue arabe reste elle-même et elle est devenue mondiale et parlée par d'autres nations.

Les mots clés: Coran- la langue arabe pure- lecture coranique- les règles vocabulaires- la langue de korich – les dialectes.

Summary: The Quran is the first book written in Arabic lived, the stress that Muslims have to read and write this book, we developed the Arab linguistique so this is the starting point, where preachers, interlocutors and literary took clarity and Arabic performance and this book will be the model and the perfect plan for any write method and grace to Koran and the Arabic language remains as well and it has become global and talked visor other nation.

Keywords: coran- Arabic reading purely coranique- the rule vocabulaire- language korich - dialects

المقدمة:

لقد كانت الأمة العربية في جهالة جهلاء وضلالة عمياء، ولحكمة عظيمة أراد الله أن ينقذ بها هذه الأمة من تلك الحال فأنزل عليها القرآن الذي رفع من شأنها وجعلها بإتباعه في سنوات معدودة أمّة واحدة متماسكة مترابطة فكانت خير أمّة أخرجت للنّاس، فقد أعطوه أنفسهم وأسلموه أمورهم، وخشعت لبيانه قلوبهم، وانقادت بتلاوته ألسنتهم، وقاموا به والناس نيام فسرى فيهم كما يسري الماء في أرض قد أجدبت، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فكان هذا شأنه حتى أضحى حجة قاطعة ودليلا ظاهرا ومثالا ساطعا، فممّا لاشك فيه أنّ

فضل هذا الكتاب كبير ومنزلته سامية ومكانته عالية، فكان كتاب الإسلام في عقائده وعباداته، وحكمه وأحكامه، وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه أخباره، وهدايته ودلالته، وهو أساس رسالة التوحيد والرحمة المسداة للناس والنور المبين الذي لا يزيغ عنها إلّا هالك، ونظرا لفضل القرآن الكريم يحقّ لنا أن نتساءل عن: ما هي تجلّيات فضل القرآن على اللغة العربية؟ وبعبارة أخرى كيف ساهم القرآن في تقعيد اللّغة العربية الفصحى؟ وهل اقتصر هذا الدور على الكتاب المنزّل أم أنّ هذا الدور قد امتدّ للقراءات القرآنية؟

فقد اعتبر القرآن في أعلى درجات الفصاحة وخير ممثّل للّغة الأدبية المشتركة، وقد تحدّث الدارسون عن أفصح اللّغات في العربية والتي امتازت عن غيرها بمميّزات ومحاسن فنزل القرآن بلسانها.

1- **آراء الدارسين عن أفصح لغات العرب:** لقد تحدّث علماء العربية الأوائل عن أفصح اللّغات، وكانت لغة قريش في مقدمة اللّغات التي خصّوها، فقال يحيى بن زياد " كانت العرب تحضر الموسم في كلّ عام، وتحجّ البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلّموا به فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللّغات ومستقبح الألفاظ..." [1]، وقال أبو نصر الفارابي "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللّسان عند النّطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عمّا في النّفس واللذين عنهم نُقِلَت اللغة العربية وبهم أُقْتُدِي، وعنهم أُخِذ اللّسان العربي من بين قبائل العرب: هم قيس، وتميم، وأسد، فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخِذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هُذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم..." [2] ، ونقل أحمد بن فارس عن إسماعيل بن أبي عبد الله أنّه قال: " أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم: أنّ قريشا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أنّ الله – جلّ ثناؤه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدا ﷺ... وكانت قريش – مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها – إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طُبِعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب ألا ترى أنّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي نسمعه من قيس وأسد، مثل: تِعلمون ونِعلم، ومثل شعير وبعير" [3]، وقال ابن خلدون وهو يتحدّث عن أثر المخالطة في انحراف الألسن: " ولهذا كانت لغة قريش هي أفصح اللّغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأمّا من بَعُد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية "[4]، فجميع هذه النصوص تشترك في أنّ لغة قريش هي أفصح لغات العرب كما تشير إلى أنّ مواطن الفصاحة كانت متفاوتة بين القبائل العربية، كما حاولت أن تقدّم لنا صورة عن تكوّن العربية الفصحى، وقد ناقش المؤلفون في تاريخ الأدب العربي وفقه اللغة العربية من العرب هذا الموضوع أيضا في العصر الحديث، وكان مصطفى صادق الرافعي من أوائل الذين تصدوا للموضوع إذ يذهب إلى " أنّ اللغة العربية الفصحى مرّت بأدوار من التّهذيب كان آخرها الدور الذي سادت فيه لغة قريش قبل الإسلام، وبلغتهم نزل القرآن فتكوّنت به الوحدة اللغوية في العرب "[5] فهو يرى أن الإسلام فرض على العرب جميعا لغة عامة واحدة هي لغة قريش، وقد وضّح الدكتور طه حسين

العوامل التي هيّأت للغة قريش السّيادة و الانتشار قبيل الإسلام حيث قال: " فالمسألة إذن هي أن نعلم: أسادت لغة قريش ولهجتها في اللغة العربية وأخضعت العربية لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده؟ أما نحن فنتوسط ونقول: إنها سادت قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلّط على أطراف البلاد العربية، ولكن سيادة لغة قريش قبيل الإسلام لم تكن شيئا يذكر ولم تكد تتجاوز الحجاز..." [6]، وينتهي إلى القول " أنّ لغة قريش إذن هب اللغة العربية الفصحى، فرضت على قبائل الحجاز فرضا لا يعتمد على السيف إنّما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب كما كان الحج، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش" [7]،فيتبين من ذلك أنّ سيادة لغة قريش كانت منحصرة في رقعة جغرافية محدودة هي بلاد الحجاز، كما كانت تلك السيادة في وقت قريب من ظهور الإسلام.

كما تحدّث الدكتور رمضان عبد الثواب عن ظروف تكوّن العربية الفصحى إذ يرى" أنّ اللغة المشتركة نشأت ونمت وازدهرت قبل الإسلام في مكة، لظروف دينية وسياسية واقتصادية" [8]، وبين بعد أن شرح تلك الظروف صفات تلك العربية الفصحى المشتركة:

" فالصفة الأولى: هي أنّها فوق مستوى العامة، أي أنّها لم تكن في متناول جميع العرب.

والثانية: أنّ اللغة المشتركة لا تنتمي صفاتها أو عناصرها إلى بيئة محلية بعينها فلا يحقّ لنا أن نقول حسب رأيه إنّ اللغة المشتركة هي لغة قريش، أو تميم أو غيرها من قبائل العرب بل هي مزيج من كل هذا؛ ولكنه في الوقت نفسه يقرّر أنّ لهجة قريش أسهمت في تكوين العربية الفصحى بعناصر كثيرة، فلا مبالغة إذن في إطلاق عبارة (لغة قريش) على العربية الفصحى.

والصفة الثالثة: أنّها لم تكن لغة سليقة لكل العرب، ومعنى السليقة أنّ المتكلم يتكلم باللغة بغير شعور بما لها من خصائص" [9].

وعليه فإنّ آراء الباحثين في علاقة العربية الفصحى بلغة قريش تتلخّص في: أنّ لغة قريش هي أصل العربية الفصحى، ومن العلماء من ذهب إلى أنّ لغات القبائل الأخرى أسهمت على نحو كبير في تكوّن الفصحى، وأنّ هذه الأخيرة قد اكتسبت كثيرا من خصائصها من لغة قريش.

2- **نزول القرآن بلغة قريش:** يفهم من عبارة نزول القرآن بلغة قريش أنّ نطق النبي صلى الله عليه وسلم لألفاظ القرآن الكريم كانت بالنطق السّائد للعربية في مكة، وأنّ ألفاظ القرآن ذاتها كانت ممّا جرى في استعمال الناس القاطنين في مكة وما حولها وأنّ كتابته قد جرت على ذلك النطق وتلك الألفاظ، والقرآن يقرّر حقيقة تابثة وهو أنّ كلّ رسول إنّما يرسل بلغته ولغة قومه ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾ [10] قال الطبري: "بلغة قومه أي بلسان قومه" [11]، ومن ثمة جاء القرآن باللّسان العربي وقد تأكّد هذا المعنى في أكثر من آية ومن ذلك قوله تعالى﴿ وإنه لتنزيل ربّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[12]، وقد وردت نصوص تؤكّد نزول القرآن بلغة قريش خاصة وهي لغة النبي ﷺ ومن تلك النصوص أنّ " الصحابي عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه- بعث به عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- في خلافته إلى الكوفة ليعلّم الناس هناك الفقه وقراءة القرآن. وما هي إلّا أن جاءت الأخبار إلى عمر بأنّ ابن مسعود يقرئ القرآن بلغة قومه هذيل، فكتب عمر بن الخطاب إليه هذه الرسالة: " أمّا بعد فإنّ الله تعالى أنزل القرآن بلغة قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئِ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل" [13]، وقد جاء في خبر كتابة المصاحف في خلافة عثمان أنّه أوصى الصحابة الذين كانوا يعملون

مع زيد بن ثابت الأنصاري وهم ثلاثة نفر من قريش: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بالوصية الآتية: " وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنّما نزل بلسانهم، ففعلو " [14]، فعثمان ابن عفان حين قال ذلك وهو خليفة المسلمين قد عبّر عن حقيقة لم يعرف عن أحد من الصحابة أنّه أنكرها بل تعاون الصحابة على تحقيقها في كتابة القرآن، فجاء مكتوبا بلغة قريش التي أنزل بها، فضلا عن ذلك فقد وردت ظواهر لغوية في القرآن الكريم وهي من خصائص لغة الحجاز دون غيرهم ومن تلك الظواهر نجد قول سيبويه وهو يتحدث عن لغة بني تميم وأهل الحجاز في ما النافية: " وأمّا بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل، أي لا يعملونها في شيء وهو القياس... وأمّا أهل الحجاز فيشبّهونها بليس إذا كان معناها كمعناها... ومثل ذلك قوله عز وجلّ: ﴿ ما هذا بشراً﴾ في لغة أهل الحجاز وبنو تميم يرفعونها إلّا من عرف كيف هي في المصحف "[15] ومن ذلك أيضا قول الأخفش وهو يتحدّث عن قوله تعالى: ﴿ إلى النحل أنِ اتخذي﴾ على التأنيث في لغة أهل الحجاز، وغيرهم يقول: هو النحل "[16].فالملاحظ من ذلك أنّ رسم المصحف للنص القرآني يوافق لغة أهل الحجاز، وقلب الحجاز مكة وأهل مكة هم قريش، وممّا يؤكد ذلك أيضا رسم الهمزة فقد جاء غي كتب رسم المصحف أنّ الهمزة المتوسطة قد رسمت في المصاحف القديمة ياء أو واوا أو ألفا، بحسب ما تؤول إليه في التخفيف ومثال ذلك: " الذّيب، وبير، وسيلت، والخاطية، وبنبّيك، وسنقريك، وغيرها " فمثل هذه الكلمات تبيّن أنّ الذين تولوا نسخ المصاحف كانوا لا يحقّقون الهمزة، وإنّما يكتبون حرف العلة الذي يخلّفها في نطق الكلمة، وكان عدد من علماء السلف قد لا حظوا أنّ كتابة الهمزة في المصحف قد جرت على مذهب من يسهّلها، فقد قال أبو عمرو الداني: " والهمزة قد تصوّر على مذهبين من التحقيق والتسهيل، دلالة على فشوّهما واستعمالهما فيها، إلّا أنّ رسم أكثر الرسم ورد على التخفيف، والسبب في ذلك كونه لغة الذين ولوا نسخ المصاحف زمن عثمان، رحمه الله، وهم قريش...فلذلك ورد أكثر الهمز على التسهيل، إذ هو المستقر في طباعهم والجاري على ألسنتهم"[17]، ونقل جلال الدين عن أبي حيان الأندلسي تعليلا لكتابة الهمزة التي تقع في أوّل الكلمة مطلقا سواء فتحت أو كسرت أو ضمّت، وهو: " قال أبو حيان: إنّما لم يخالف بها إلى حركتها لأنّ الهمزة إذا كانت أوّلا فهي مبتدأة، والمبتدأة لا تسهّل والكتاب بنوا الخط في الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين:

أحدهما أنّ التسهيل لغة أهل الحجاز، واللغة الحجازية هي الفصحى، فكان الكتب على لغتهم أولى.

والثاني: أنّه خط المصحف، فكان البناء عليه أولى..." [18] فإذا كانت المصاحف القديمة التي كاتبها الصحابة قد كتبت على تسهيل الهمزة فإنّ هناك نصوصا تؤكد أنّ تسهيل الهمزة هو الجاري على ألسنة الناس في الحجاز وهو الذي غلب على قراءة قراء مدن الحجاز الأوائل وممّا يؤكد ذلك قول ابن الجزي: " ولمّا كان الهمز أثقل الحروف نطقا، وأبعدها مخرجا تنوّع العرب في تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل والبدل وبين بين والإدغام وغير ذلك وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخيفا، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم، كابن كثير من رواية ابن فليح، وكنافع من رواية ورش وغيره، وكأبي جعفر من أكثر رواياته، ولا سيما رواية العمري عن أصحابه عنه، فإنه لم يحقق همزة وصلا، وكابن محيصن قارئ أهل مكة مع ابن كثير وبعده، وكأبي عمرو ين العلاء، فإنّ مادة قراءته عن أهل الحجاز، وكذلك عاصم من رواية الأعشى عن أبي بكر من حيث أنّ روايته ترجع إلى ابن مسعود"[19] وعليه فإنّ كتابة الهمزة في المصاحف القديمة، ومذهب القراء في مكة والمدينة، ونطق أهل الحجاز عامة للهمزة كلّها تؤكد أنّ القرآن الكريم قد أنزل بلغة قريش وكتب بها أيضا.

وهناك قضية قد تتعارض في الظاهر مع القول بأنّ القرآن أنزل بلغة قريش وهي ما اشتهر من قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسّر منه" [20] لكن لم يرد في الحديث ما يقطع نزول القرآن بسبع لغات من لغات العرب وإنّما قد ورد في روايات الحديث أنّ الله رخّص لنبيّه أن يقرئ القرآن على سبعة أحرف، فالمراد من ذلك أنّ القرآن قد نزل بلغة قريش وأنّ قراءته جاءت على سبعة أحرف، يقول الزركشي في البرهان: " القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف أو تثقيل وغيرها..."[21]، ويقول الآمدي في الأحكام: "أمّا حقيقة الكتاب فقد قيل فيه هو ما نقل إلينا بيم دفتي المصحف بالأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا" [22] فمن الحقائق المسلم بها أنّ القرآن نزل بلسان قريش أوّلا ثم أبيح للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم، وسوف نحاول فيما يلي توضيح دلالة ذلك.

القراءات القرآنية: وهي الوجوه المختلفة التي سمح النبي قراءة نص المصحف بها قصدا للتيسير والتي جاءت وفقا للهجة من اللّهجات العربية وفي ذلك يقول ابن جزري في كتابه النشر: " فأمّا سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها... حتى أتاه جبريل فقال له: أنّ الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف فقال صلى الله عليه وسلم أسأل الله معافاته ومعونته إن أمتي لا تطيق ذلك، ولم يزل يردّد لما سأله حتى بلغ سبعة أحرف "[23] ويقول كذلك: " إنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم بعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها عربيها وعجميها، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعظمهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج ولا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتابا... فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلّف وتأبى الطباع"[24] وقد اشترط العلماء مجموعة من الشروط لقبول القراءة التي تباينت بين وجهة نظر اللّغويّين عنها لدى علماء القراءات.

3- **شروط قبول اللغويين للقراءة:** لقد ذكر علماء القراءات قاعدة تعرف بها القراءات المقبولة وتميّز عن غيرها من القراءات الشاذة المردودة وهذه القاعدة هي: " كل قراءة وافقت اللغة العربية، ووافقت رسم أحد المصاحف العثمانية وثبتت بطريق التواتر" [25] فكل قراءة اجتمعت فيها هذه الأركان الثلاثة هي القراءة التي يجب قبولها ولا يحل جحدها وإنكارها وهي من جملة الأحرف السبعة، ومعنى قولهم: " وافقت العربية" أن تكون موافقة لوجه من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا، فلا يشترط أن تكون على أفصح الأوجه، وفي ذلك يقول الإمام الداني: " وأئمة القرآن لا تعتمد غي شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة. والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عنهم لا يردها قياس عربية، ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها" [26].

ومعنى قولهم: " ووافقت أحد المصاحف" أن تكون ثابتة ولو في بعضها " كقراءة:﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾بحذف الواو التي قبل السين فهي ثابتة كذلك في المصحف المدني والشامي" [27].

وموافقة المصاحف أو بعضها قد تكون تحقيقية، وهي الموافقة الصريحة كقراءة "مالك يوم الدين " بحذف الألف فهي موافقة تحقيقا لسائر المصاحف لأنّ الألف محذوفة في جميعها، وقد تكون الموافقة تقديرية احتمالية كقراءة الآية المذكورة بإثبات الألف فهي موافقة للرسم تقديرا واحتمالا على معنى أنّ إثبات الألف على احتمال وتقدير أنّها ثابتة، وحذفت في الرسم اختصارا.

أمّا التواتر: " فهو نقل جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب عن جماعة كذلك من أوّل السند إلى منتهاه إلى رسول الله صل الله عليه وسلم هذا وقد جنح الشيخ مكي بن أبي طالب وتبعه المحقق ابن جزري إلى الاكتفاء بصحة السند وجعلاه مكان التواتر" [28].

ومن ثمة نستنتج أنّ حكمة القراء وعلماء الأصول من القراءات هي النظر إلى القراءة باعتبارها وسيلة تعبّد وتقرّب إلى الله، وشرطا لصحة الصلاة، ومصدرا للتشريع.

أمّا اللّغويين اللذين كانت حكمتهم من ذلك النظرة إلى القراءة باعتبارها أحد المصادر اللّغوية المعتمدة، وشاهدا لا يصح النظر إليه بمعزل عن سائر الشواهد اللغوية، وقد وضعوا لصحة القراءة شرطا واحدا هو" صحة الرواية عن القارئ العدل حتى لو كان فردا، وسواء رويت القراءة بطريقة التواتر أو الآحاد" [29]، بل أكثر من هذا بأنّ العدالة وإن كانت شرطا في الراوي فهي ليست شرطا في العربي الذي يحتج بقوله.

" كما لم يشترطوا اتصال السند ورفعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، واللّغويون يتعاملون مع القراءة على أنّها نص رواه أو قرأ من يوثق في عربيته على فرض التشكك في نسبة القراءة إلى الرسول "[30]، وبهذا يدخل في باب الاحتجاج اللّغوي كثيرا ممّا عدّه القراء في باب التفسير أو الشرح اللّغوي، أمّا شرط موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية فلا يتقيّد به اللّغوي كذلك، بل هو يرى في هذا الشرط حدّا من تعدد القراءات وإضاعة للحكمة من تشريعه، وهي التخفيف على الأمة وإرادة السير بها.

أمّا شرط موافقة العربية ولو بوجه فلا يرى اللغوي ضرورة له لأنّه أمر متحقّق لا محالة حين ستحقّق شرط الرواية ولهذا يقول ابن الجزري: " وقولنا في الضابط " ولو بوجه" نريد به وجها من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا، مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح "[31] وحين أراد ابن الجزري لأن يمثّل لما نقله الثقة ولا وجه له في العربية لم يجد ما كان يمثل له إلا ما كان من سبيل السهو والخطأ، ومع ذلك عقب بقوله: " وهو قليل جدا بل لا يكاد يوجد"[32] وبإتباع هذه الشروط والتعليلات تدخل القراءات بجميع درجاتها ومستوياتها في الدرس الأدبي واللّغوي دون حرج.

4- **نظرة اللغويين إلى القراءة:** تختلف نظرة اللّغويين إلى القراءة باختلاف الغاية من الاستشهاد بها، " فإن كانت الغاية إثبات وجود اللّفظ في اللغة، أو ضبط نطقه أو ذكر معناه، أو غير ذلك من النتائج الجزئية التي لا تعمم حكما، ولا تبني قاعدة، فإذا كانت الغاية كذلك فلا يهم كثرة النماذج اللّغوية الموافقة لهذه القراءة أو قلتها، كما لا يهم أن تكون النموذج الوحيد المنقول إلينا، وقد قبل اللّغويون روايات الآحاد بالنسبة لجميع الشواهد اللّغوية في مثل هذه الحال.

أمّا إذا كانت الغاية من الاستشهاد وضع قاعدة، أو استنباط حكم أو تقنين نمط فإن اللّغوي حينئذ يضع القراءة إلى جانب غيرها من النصوص، ويوازن بينها ويبني القاعدة على الكثير الشائع سواء كان مقروءا به أو غير مقروء وسواء كانت القراءة متواترة أو غير متواترة" [33].

وعليه فإنّ القراءة في مجال التقنين والتقعيد لا تعزل عن بقية المصادر اللغوية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر الجاهلي والإسلامي ومأثور النثر، فتوضع مع غيرها ويصنّف الجميع ويحلّل ثم تستخلص القاعدة على ما تثبت كثرته ويتّضح شيوعه واطّراده؛ لأنّه هو الذي يمثّل اللغة المشتركة أو القاعدة التي يجب محاكاتها والالتزام بها.

وقد شاركت القراءات القرآنية في بناء الكثير من القواعد النحوية والتي اتّخذت عدّة مظاهر منها:

قراءات تولّدت عنها قواعد نحوية مختلفة: ومن أمثلتها:

قاعدة الفعل المضارع المقترن بالفاء أو الواو إذا وُلي فعل الشرط وجوابه، وجواز رفعه على الاستئناف، أو جزمه على العطف، أو نصبه بإضمار أن: وقد

أخذت هذه القراءة من القراءات التي قرئ بها قوله تعالى:﴿ وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفِرُ لمن يشاء﴾[34]. فقد قرأ " ابن عامر وعاصم من السبعة برفع (يغفر)، كما قرأ غيرهم بالجزم " [35]، وقرأها ابن عباس – رضي الله عنه – بالنصب وهي قراءة شاذة.

وهناك قراءات نحوية أيدت بها قاعدة نحوية: ومن أمثلتها:

صرف الممنوع من الصرف لإرادة التناسب: وقد أيّدت هذه القاعدة" بقراءة نافع والكسائي بالتنوين وصلا لقوله تعالى:﴿ سلاسلا وأغلالًا وسعيرًا﴾[36] صرفا لمناسبة اقترانه بكلمة (أغلالا) وهي مصروفة، كما أيدت بقراءة الأعمش لقوله تعالى:﴿ ولا يغوتًا ولا يعوقًا ونسراً﴾[37] " بصرف " يغوت ويعوق" وهما يحتويان على سبب المنع من حيث علميتهما ووزن الفعل فيهما؛ وذلك لمناسبة (نسرا) وهي كلمة منونة".

كما أسهمت القراءات القرآنية في توليد قاعدة غير مألوفة أو شائعة: فاستحدثت بعض الغرائب النحوية التي بعدت عن المألوف بين الناس ومثال ذلك: إهمال أن الناصبة للمضارع وحملها على ما المصدرية: فمن المعروف أنّ أن حرف ناصب للفعل المضارع إذا ما سبقه كقوله تعالى: ﴿ والذي أطمع أن يغفرَ لي خطيئتي يوم الدين ﴾(38).ويرى بعض النحويين إهمالها وحملها على ما المصدرية، ورفع الفعل المضارع، وقد أيدت هذه الوجهة بقراءة ابن المحيصن لقوله تعالى: ﴿ لمن أراد أن يتمَّ الرضاعة﴾ (39).و ذلك برفع يتم على اعتبار أنّ (أن) مصدرية فقط ولا عمل لها.

5- **القرآن الكريم أصل العلوم العربية:** إن الحديث عن القرآن الكريم هو حديث الشيء عن ذاته فالقرآن الكريم عربي المبنى فصيح المعنى، وقد تحدّث الإمام الثعالبي في مقدمة كتابه فقه اللغة وسر العربية عن:" أنّ من أحبّ الله تعالى أحبّ رسوله محمدا – صلى الله عليه وسلم–، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همّته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، واعتقد أنّ محمدا خير الرسل، والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقوف على مجاريها ومصارفها، والتبحر في جلائلها ودقائقها إلّا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان، لكفى بها فضلا يحسن أثره، ويطيب في الدارين ثمره"(40).

فيتّضح من كلامه أنّ القرآن الكريم بمثابة الروح من الجسد بالنسبة للغة العربية بل بفضله سادت وتهذّبت، وضبطت قواعدها، واتصلت حلقات عصورها، وانفتحت للعلوم والمعارف وحفظت وحدتها لأجل ذلك قيل:

" وإذا أردت من العلوم أجلّها

فعليك بالقرآن والإعراب.

هذا لديك إن أردت ديانة

ومدى وذاك المنطق وخطاب"[41]

ففي القرآن الكريم توضيح للأحكام والشرائع والأحكام والمواعظ والتاريخ ونظام الكون، وفي ذلك قال السيوطي:" اعتنى قوم بضبط لغات القرآن وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة، من غير تعرّض لمعانيه ولا تدبّر لما أودع فيه فسمّوا القراء – واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها من ضروب الأفعال واللازم والمتعدّي ورسوم الخط الكلمات وجميع ما يتعلّق به حتى أنّ بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة

كلمة– واعتنى المفسّرون بألفاظه فوجدوا منه لفظا يدلّ على معنى واحد ولفظا يدلّ على معنيين ولفظا يدلّ على أكثر فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه وخاضوا في ترجيح أحد المحتملات ذي المعنيين والمعاني وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره – واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية فاستنبطوا منه وسموا هذا العلم بأصول الدين– وتأمّلت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز– وتكلموا في التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه– وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسّسوا أصوله وفرعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطا حسنا وسمّوه بعلم الفروع وبالفقه أيضا – وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودوّنوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأوّل الأشياء وسمّوا ذلك بالتاريخ والقصص – وتنبه آخرون بما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال فاستنبطوا ممّا فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والميعاد، والحشر والحساب، والعقاب والثواب، والجنة والنار فصولا من المواعظ وأصولا من الزواجر فسُمّوا بذلك الخطباء والوعاظ– وأخذ قوم بما فيه آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك من علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والربع والسدس والثمن حساب الفرائض – ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواثيق – ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللّفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع." (42). فالقرآن الكريم هو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأنفس والأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، فقد أدّى الاهتمام به إلى وضع كتب التفسير التي تحوّلت تدريجيا عن طريق التعمّق والتخصص إلى كتب نحو متكاملة، وكتب لغة وقواميس، كما أنّ العناية بقراءة القرآن قراءة صحيحة أدّى إلى وضع أسس العلوم الصوتية والصرفية، وفي مرحلة لاحقة وفي إطار الاهتمام المتزايد بظاهرة الإعجاز القرآني ظهرت العلوم البلاغية.

فضلا عن ذلك فإنّ للقرآن الكريم دور كبير في حفظ اللّغة وإكسابها صفة الثبات والبقاء، فلا يخفى أنّ الإنسانية لم تعرف طوال تاريخها لغة خلّدها كتابها إلّا اللغة العربية فقد أعطى اللغة إكسير الحياة وسر البقاء. وقد حفظ لنا هذا الكتاب نصوصا من لهجات العرب التي لا يرقى شك إلى فصاحتها وذلك من خلال القراءات القرآنية التي حوت وحفظت اللّهجات العربية من الانقراض.

كما هذّب القرآن اللغة من الوحشي والغريب فحوّلها إلى لغة سلسة مرنة وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات: " ألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء...و إليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء... وما عداها... كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة"(43)، فالقرآن الكريم هو من هذّب اللسان العربي من وحشي الكلام وغريبه، وذلك لأنّه نزل في أعلى درجات الفصاحة فكان خير ممثل للغة العربية ولولاه لما وصلت إلى ما هي عليه من المعاني الفياضة والمعاني المتطورة والتراكيب والأساليب العالية الرفيعة.

خاتمة:

وبناء على ما سبق نستنتج أنّ للقرآن الكريم فضل كبير على اللّغة العربية لذلك فمن واجب المسلمين أن

يهتموا بشأنه ويعتنوا به، ويحلّوه المكانة السامية، والمنزلة العالية فيحكّمونه فيما بينهم ويجعلونه دستور حياتهم، ونظام معيشتهم، وقوام أمرهم وصراطهم المستقيم يهتدون بهديه، ويتداعون إليه، ويقبلون عليه، ويتدارسونه فيما بينهم وذلك بغية تفسيره والكشف عن أسراره، وقد أدّى بهم ذلك إلى وضع كتب التفسير التي تحوّلت تدريجيا عن طريق التعمّق والتخصص إلى كتب نحو متكاملة، وكتب لغة وقواميس، كما أنّ العناية بقراءة القرآن قراءة صحيحة أدّى إلى وضع أسس العلوم الصوتية والصرفية، وفي مرحلة لاحقة وفي إطار الاهتمام المتزايد بظاهرة الإعجاز القرآني ظهرت العلوم البلاغية.

الهوامش:

1-المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1958، ج1، ص221.

2- نفسه، ج1، ص211.

3-الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر عيسى، البابي الحلبي، القاهرة، 1977، ص33.

4- المقدمة، ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957، ج2، ص1072.

5- ينظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الاستقامة، ط2، 1940، ج1، ص 81-90.

6-في الأدب الجاهلي، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط10، 1971، ص105.

7-نفسه، ص107.

8-فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1، 1973، ص63-64.

9-ينظر: المرجع نفسه، ص 65-78.

10- سورة إبراهيم الآية، 4.

11- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، البابي الحلبي، القاهرة، ط3، 1968، ج13، ص181.

12- سورة الشعراء، الآية 192-195.

13- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ج13، ص181.

14- الجامع الصحيح، البخاري، طبع محمد صبيح، القاهرة، ج2، 226.

15- ينظر: الكتاب، سيبويه، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة، 1976، ج1، ص57-59.

16- معاني القرآن، الفراء، القاهرة، 1972،1955، ج2، ص384.

17- المحكم في نقط المصاحف، الداني، تحقيق الدكتور عزة حسن، دمشق، 1960، ص151.

18- همع الهوامع شرح جمع الجوامع، السيوطي، الخانجي، مصر، ط1، 1327هـ، ج2، ص233.

19- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، مطبعة مصطفى محمد، مصر، ج1، ص428.

20- الجامع الصحيح، البخاري، ج2، ص227.

21- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1972، ج1، ص318.

22- الأحكام، ج1، 228.

23- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ج1، ص22.

24- نفسه، الصفحة نفسها.

25- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب، عبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1981، ص 7.

26- نفسه، الصفحة نفسها.

27- نفسه، ص7-8.

28- نفسه، ص8.

29- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988، ص21.

30- نفسه، الصفحة نفسها.

31- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ج1، ص10.

32- نفسه، ص12.

33- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، 24-25.

34- سورة البقرة، الآية: 284.

35- النشر في القراءات العشر، ج2، ص237.

36- سورة الإنسان، الآية: 4.

37- سورة نوح، الآية:23.

38- سورة الشعراء: الآية: 82.

39- سورة البقرة، الآية: 233.

40- فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، د.ط، القاهرة،1938، ص1.

41- ينظر: الأبيات في تاريخ القرآن وغرائب رسمه، محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي، 1365هـ، جدة، د.ط، د.ت، ص11.

42- نفسه، ص12-14.

43- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص17-18.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش

1- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988.

2- البخاري، الجامع الصحيح، طبع محمد صبيح، القاهرة.

3- الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، د.ط، القاهرة،1938.

4- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مطبعة مصطفى محمد، مصر.

5- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1957.

6- الداني، المحكم في نقط المصاحف، تحقيق الدكتور عزة حسن، دمشق، 1960.

7- رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1، 1973.

8- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراميم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1972.

9- سيبويه، الكتاب، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة، 1976.

10- السيوطي، همع الهوامع شرح جمع الجوامع، الخانجي، مصر، ط1، 1327هـ،

11- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، البابي الحلبي، القاهرة، ط3، 1968.

12- طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط10، 1971.

13- عبد الفتاح القاضي، القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1981.

14- الفراء، معاني القرآن، القاهرة، 1972،1955.

15- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق السيد أحمد صقر عيسى، البابي الحلبي، القاهرة، 1977.

16- محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي، تاريخ القرآن وغرائب رسمه،1365هـ، جدة، د.ط، د.ت.

17- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، ط2، 1940.